أسلوب المؤلفات الفارسية للخواجة رشيد الدين فضل الله

بقلم الدكتور سيد جعفر شهيدى

ترجمة

أ. م. د. عماد الدين عبد الرزاق العباسي

مركز إحياء التراث العلمي العربي

جامعة بغداد

(خلاصة البحث)

يتحدث هذا البحث الموسوم (أُسلوب المؤلفات الفارسية للخواجه رشيد الدين فضل الله)، وهو الوزير الفاضل والمؤرخ (١٢٤٧- ١٣١٨م)عن جملة من كتبه ورسائله، وقد ابتدأ الدكتور جعفر شهيدي بحثه هذا بكتابه جامع التواريخ، وهو كتاب مفصل في التاريخ العام للعالم يتضمن تاريخ الملوك السالفين، والأنبياء، وتاريخ الإسلام حتى سقوط بغداد، وتاريخ اليهود، وتاريخ المسيحيين، والهند، والصين، وتاريخ ملوك المغول، ويناقش البحث كيفية اعتماد المؤلف على مصادره، ودقة النقل منها، والإشارة إليها من عدمها، ويورد أمثلة على ذلك بفقرة أو عبارة تاريخية معينة تناولها كتاب تاريخي آخر، ويبين مدى التطابق في الألفاظ بينهما، وأيهما كان سابقاً للآخر، وكيف انه كان ينقل عباراته من كتاب آخر بدون أدنى تغيير أو تبديل، وخصوصا ما كان ينقله من تاريخ الطبري، وكيف انه جعله مصدراً له، وصنع نسخة أُخرى منه ومن تاريخ يميني، ويشير أيضا إلى أبسط التغييرات التي كان يُحدثها الخواجه عند الضرورة في نقله من هذه المصادر، ويسرد أمثلة لاستعماله لبعض الألفاظ والتراكيب بشكل خاطئ من الناحية القواعدية، ومن حيث المعنى، واستعماله لبعض الألفاظ والتراكيب بعينها في فصل أو فصول دون غيرها. أما ما يمكن عده الاسلوب الحقيقي لمؤلف الكتاب؛ فهو الجزء المتعلق بتاريخ الملوك

المغـول وأنسـابهم؛ لأنـه لـم يكـن يتـوفر كتـاب جـاهز لتحريـر هـذا المجلـد ليكتـب الخواجـه رشـيد الـدين متكئـاً عليـه، وبالنتيجـة فقد بقـي مصـدر الكتـاب محفوظـاً نوعـاً مـا. فكـل مـا كتـب كـان مـن إنشـائه هـو، وكـان إتباعـاً للأسـلوب الـرائج فـي عصـره، مـع ملاحظـة أن نثـر هـذا الفصـل مـن الكتـاب هو أيضا لم يكن على المنوال نفسه من البساطة والسلاسة.

وقد أشَّـرَ البحث أيضـاً موضـوعات اقتباس الآيات القرآنية، وتضـمين الحديث بصورة استشهاد، والطباق والتضاد.

فضل اسلوب المؤلفات الفارسية للخواجة رشيد الدين الله

إنّ تعيين أسلوب المؤلفات الفارسية للخواجه رشيد الدين فضل الله عمل ليس بالسـهل بسـبب تنوع كتبه ومدوناته، إلى الحد الذي يمكن معه القول إن أسـلوب كتابات الخواجه تتغير طبقاً لكتبه ورسـائله. هذا الاختلاف يمكن أن يكون أحيانا جلياً ومن الممكن ملاحظته، ويحتاج أحياناً إلى التدقيق والتدبر. ومن مؤلفات الخواجـه الفارسـية التي بين أيدينا اليوم، الأول: كتاب **جامع التواريخ** الذي يشـتمل على تاريخ العالم منذ البدء وحتى زمان هذا الوزير الفاضـل، الثانية: كتبه ورسـائله في مواضـيع مختلفة، الثالثة: مكاتباته ومنشـآته ورسـائله الخاصّـة، ويجب أن يُبحث كل واحد من هذه المؤلفات بشـكل منفرد، والأفضل أن نبدأ بالحديث عن **جامع التواريخ**.

كما نعرف فان **جامع التواريخ** كتاب مفصـل يتضـمن تاريخ الملوك السـالفين، والأنبياء، وتاريخ الإسلام حتى سقوط بغداد، وتاريخ اليهود، وتاريخ المسـيحيين، والهند، والصـين، وتاريخ ملوك المغول. وكما يبدو واضـحا من عنوان الكتاب فقد كان هدف المؤلف جمع التاريخ العام للعالم بدون الالتفات إلى صحة وسقم وجرح وتعديل المواضيع. مع أنه يمكن القول إن كُتاب التاريخ في زمانه والذين من بعده لم تكن لديهم مثل هذه السجية. وقد ورد في إحدى النسخ الخطية التي تتحدث عن تاريخ المغول والصـينيين، والتي استفاد منها كاتب هذا البحث: "عندما رأى ملك الإسـلام أدام الله سـلطانه، ونتيجة لاهتمامه الكبير والدائم وتشجيعه لأنواع العلوم وتفحصه لفنون الحكايات والتواريخ، وانصراف

أكثر وقته الميمون في اكتساب صنوف الفضائل والكمالات، وبعد دراسة وتصحيح هذا التاريخ، فقد أمر بما أنه لم يؤلف حتى هذا الوقت أي كتاب في التاريخ يشتمل على أحوال وحكايات عموم أهالي الأقاليم وطبقات أصناف بني آدم، ولا يوجد في هذه الديار أي كتاب في باب أخبار سائر البلاد والأمصار، ولم يقم أحد بتفحص وتتبع الملوك المتقدمين، وفي هذه الأيام وبحمد الله ومنّه فقد أضحت أطراف وأكناف الربع المسكون بإمرة اروغ المعروف بچنكيزخان، واجتمع الحكماء والمنجمون وأهل العلم وأصحاب تواريخ أهل الأديان والملل من أهالي ختاي وماچين والهند وكشمير والتبت واويغور وبقية الأقوام من الأتراك والعرب والإفرنج في عبادة رب السماء، ولكل واحدة من هذه الطوائف تواريخ وحكايات ومعتقدات، لذا يقتضي الوقوف عندها والاطلاع عليها، لانّ هذه التواريخ المفصلة والحكايات المجملة تكمل بعضها البعض، وان يُحرر باسم مليكنا المبارك، وقد كتب في مجلدين **صور الاقاليم** و**مسالك الممالك** وقد صنعوا ذيلاً للتاريخ المذكور ليكون مجموعها كتاب لا نظير له جامعاً لجميع أنواع التواريخ، لتوافر الفرصة لإنشاء مثل هذا الاستذكار والذي لم يتيسر في عصر أي من الملوك، لذا يجب إتمامه بدون تلكؤ أو تأجيل ليكون سببا لدوام الاسم والناموس. وبناء على ما تقدم فقد تفحصت واستخبرت عن جملة من فضلاء وأشراف الطوائف المذكورة، وقد التقطت من مضامين الكُتاب المتقدمين مجلداً آخر في باب تواريخ عموم هذه الأقاليم وألحقت مجلداً آخر في بيان **صور الأقاليم** ومسالك **الممالك**، وقد تم ذيل هذا التاريخ المبارك وسُمي مجموع هذا الكتاب بـ **جامع التواريخ رشيدى**".

وبهذه العبارة الموجزة يمكننا أن نستنبط بسهولة أن الهدف الأصلي للمؤلف قد كان جمع مجموعة من التواريخ لمختلف الأقوام والملل. وإذا ما نهض شخص للقيام بهذا العمل وأراد أن يخلص النية في أقصر مدة لإنجازه، فان أيسر طريق هو أن يحصل على مصدر وأن ينقل هذا المصدر بعينه وأن يجعله في مجموعة واحدة، وعند الضرورة يُحدث في عباراته تغييراً بسيطاً. لقد اتبع مؤلف أو مؤلفو **جامع التواريخ** الأسلوب نفسه، وهذا الأمر جعل إعادة

تعيين أسـلوب خاص لهذا الكتاب بالذات أمراً صـعباً. فأحياناً يبدو أن مؤلف **جامع التواريخ** كان بين يديه كتاب وكان ينقل عباراته بدون أدنى تغيير أو تبديل إلى مجموعته. وفي هذه الحالة فبدلاً من البحث في أسـلوب **جامع التواريخ** يجب مناقشـة أسلوب إنشـاء هذا الكتاب، وأحياناً كان يسـاير اسلوب الكتابة في عصـره فيأتي بتغيير بسـيط في العبارات، وهذا يتوجب الاطلاع على كيفية تحول النثر الفارسي وتطوره في عصر المؤلف. فعلى سبيل المثال يمكن القول أن ذلك الجزء من **جامع التواريخ** الذي يتحدث عن الفترة من ابتداء العالم وحتى عصر المعتصم مأخوذة من **تاريخ الطبري**، ولو انه لا يمتلك قِدم وصفات **تاريخ الطبري**، لكن عباراته أبسط من بقية أجزاء الكتاب، والجمل أقصر، وتتساوى الألفاظ والمعاني في حدود ها، والمعروف أن المؤلف قد جعل **تاريخ الطبري** مصـدراً له وصـنع منه نسـخة أُخرى، وهذه عينةٌ من نثر هذا الجزء: "ذِكرُ جمشيد بن نو جهان: كان أخ طهمورث واسمه جم، ويدعونه الشعاع اللامع لأنه كان بغاية الجمال وذو وجهٍ نوراني، فسـموه جمشـيد، وبما حظي من جمالٍ في العقل والعلم، فقد أجمع عليه عظماء الفرس ونصـبوه ملكاً، ثم اشـتغل بعد ذلك بتدبير شـؤون الدولة، وترتيب الأدوات، واختراع الآلات المفيدة، فوسـع مدينة اصطخر".

وإذا لم يكن التركيب (با وجود = مع وجود، بما حظي) في هذه العبارة، فمن الممكن أن نعده من نثر أوائل القرن الخامس. إن المجلد الذي كُتب في شـرح أحوال وتاريخ مملكة السلطان محمود الغزنوي وأبيه وأخلافه، هو إعادة تحرير لترجمة كتاب **تاريخ يمينى** مع اختلاف بسـيط هو من عادة كُتاب القرن السـابع، ومنها الإطالة في بعض عبارات الكتاب، وفي مواضـع أُخرى حذفت الصـناعات اللفظية، وحلَّ محلها نثر أكثر بسـاطة، وهنا مقارنة لفقرات من موضوعات الكتابين:

يقول مترجم **تاريخ يمينى**: "أول فتح تم في عهده الميمون، كان فتح ناحية بُسـت، وكان سـبب ذلك هو أن طغان، وهو والي هذه المنطقة، والآخر هو باى توز الذي أُخذ هذه الولاية من يد طغان عنوة. ولما لم تكن لطغان القدرة على

المقاومة اضـــطر لترك هذه الناحية وهرب إلى رعاية وحماية ناصـــر الدين، فطلب العون منه كي يُخرج ولايته من قبضته، فتمّ قبول خدماته والتزم بإرسال مقدار معين سنوياً يشحن إلى خزانته المعمورة".

وقد وردت هذه العبارة في **جامع التواريخ** هكذا: "أول فتح تم في عهده الميمون، كان فتح ناحية بُســت، وكان ســبب ذلك هو أن طغان، وهو والي هذه المنطقة، وقد أخذها من يده عنوة بايتوز أمير هذه الولاية، ولما لم تكن لطغان القدرة على المقاومة، ترك هذه الناحية، وهرب إلى كنف رعاية ناصـــر الدين، وطلب العون منه لينتزع ولايته من قبضته، والتزم بان يرسل سنويا شحنة إلى خزانته" (١).

وكلما نظرنا إلى هذه العبارة القصـــيرة، نلاحظ انه قد حدثت التغييرات التالية فيها عند نقلها من **ترجمهٔ يمينى** إلى **جامع التواريخ**:

١. إن الجزء الأول من المسند (تم الفتح) قد تم حذفه، وتمّ الاكتفاء بذكر الرابطة، في الوقت الذي كانت طريقة الكُتاب السالفين في مثل هذه المواضع هي ذكر الفعل كاملاً: (منَّ الله بالفتح) (٢) أو (عندما تم الفتح) (٣)، ونادراً ما يكتفون بذكر الرابطة منفردةً. وكان يســتخدم فعل (الكينونة) بمعناه الحقيقي أي المطلق الوجود.
٢. إيراد الضمير المتصل بدلاً من الضمير المنفصل: (كان سببه هو)، بدلاً من (كان سبب ذلك هو) والتي جاءت في **ترجمهٔ يمينى**.
٣. تم حذف اصطلاح (قبول الخدمات) والذي كان رائجاً في أسلوب أُدباء القرن الخامس والسادس، وحلَّ محلها (التزم بإرسال).
٤. أورد المصـــدر (انتزاع كردن = انتزاع) بدلاً من الفعل (بيرون كردن = إخراج) في جملة (أخرج ولايته من يده)، والتي تعد ميلاً أكثر لاســتعمال المفردات العربية محل المفردات الفارسية.
٥. استعملت كلمة (خزانه) في المؤلفات السابقة لعصر المؤلف مقرونةً بوصف العامرة أو المعمورة بشكل يوحي بان لها وجهاً تركيبياً خاصاً، ولا يُرى هذا الوصف في عبارة **جامع التواريخ**.

٦. حذفت علامة المفعول الصريح (را) تماشياً مع أسلوب نثر عصره (أخرج هذه الولاية بالقوة من يده) وهنا يجب الانتباه مرة أُخرى إلى هاتين العبارتين:

"فخطف فيله صاحب راية ايلك وألقى به في الهواء، وسحق القوم تحت قدمه بثقل وطأته وبفضل قوته ورمى بخرطومه كل رجل من على ظهر الحصان" (٤). وقد ورد هذا الموضوع في **جامع التواريخ** هكذا:

"فخطف الفيل صاحب راية ايلك وألقى به في الهواء، وسحق القوم تحت قدمه ورماهم من على ظهر الخيول" (٥). وبمقارنة هاتين الفقرتين مع بعضهما، يمكن أن نشاهد التغييرات التالية:

١. حُذف قيد العلة (بثقل وطأته وبفضل قوته) لتصبح العبارة أكثر بساطةً.

٢. في عبارة مترجم **تاريخ يميني** فإن مفعول الفعل (سحق) و (ألقى) كلمتين منفصلتين، في الوقت الذي جاءت الجملة الثانية في **جامع التواريخ** معطوفةً على الجملة الأُولى، والمفعول واحد، وهذا يوجب اضطراب المعنى. لأن السؤال الذي يتبادر؛ هو كيف يسحق الفيل أشخاصاً تحت قدمه، ومرة أُخرى يُلقي الأشخاص نفسهم بخرطومه من على ظهر الحصان! وأيضاً في الكتاب نفسهم، نقرأ في الفصل المتعلق بـ (خلع الطائع) من **ترجمهٔ تاريخ يميني**: "كان لدى الجميع اهتمام أن يختاروا شخصاً لتولي منصب الخلافة وتقلد الإمامة، بحيث يكون مدركاً لحق هذا الشغل العظيم والعمل الجسيم، ويحافظ على وجوب رعاية المصلحة الخاصة والعامة، وان يبتعد بنفسه عن إتباع الهوى واختيار مراد النفس في حماية بيضة الإسلام وحفظ حياض الدين، وقد حافظ على هذه الفرصة حتى شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة عندما خُلع عن الخلافة". وقد وردت في **جامع التواريخ** هكذا: "كان لدى الجميع اهتمام أن يختاروا شخصاً لتولي منصب الخلافة وتقلد أمانة الإمامة يكون مدركاً لحق هذا الشغل العظيم والعمل الجسيم، ويحافظ على وجوب رعاية المصلحة الخاصة والعامة، وقد حافظ على هذه الفرصة حتى شعبان سنة إحدى ثمانين وثلاثمائة عندما خُلع عن الخلافة" (٦).

وهكذا نرى في **جامع التواريخ** أن تركيب (منصب الخلافة) قد أُبدل بـ (نصب الخلافة) -في حالة كانت نسخة المرحوم آتش صحيحةً -وهذا التركيب لا معنى له.

ونلاحظ أن عبارة (وأن يبتعد بنفسه عن إتباع الهوى واختيار مراد النفس في حماية بيضة الإسلام وحفظ حياض الدين)، والتي هي الشرط الواجب لتنصيب الإمام واصطلاحاً هي روح الكلام، قد حُذفت من اجل تبسيط العبارة.

وجميع مواضع الاختلاف في العبارات **بين جامع التواريخ** مع **ترجمة تاريخ يميني** تشبه هذه الحالة، إلا انه لم يورد الأشعار العربية والفارسية والأمثال والأحاديث من أجل تبسيط الكتابة.

وفي تحرير تاريخ السلاجقة، يبدو أن مصدر المؤلف كتاب قد طُبع الآن بعنوان **سلجوقنامهٔ ظهیری** ؛ وهذا ما كتبه المرحوم بهار: "بعد ذلك ظهر تاريخ السلاجقة، وهذا المجلد هو في الأصل قد أُقتبس من **راح الصدور** للراوندى، ولكن تمّ التلاعب بعباراته بشكل كبير، وفي بعض المواضع كانت العبارات منقولةً عيناً عن **راحة الصدور** بلا زيادةٍ أو نقصانٍ" (٧)، وهذا ليس صحيحاً، لان المقارنة بين النصوص الثلاثة ستدلنا على أن مصدر تأليف **راحة الصدور** و **جامع التواريخ** هو **سلجوقنامه**، وفي النهاية فقد أحدث مؤلف **راحة الصدور** تغييرات أكثر في عبارات **سلجوقنامه**، وأضاف عليها مواضيع أُخرى. وفي الفصل المتعلق بالسلاجقة، فلا تلاحظ فيه بساطة العبارة الموجودة في تاريخ الغزنويين. وقد اجتهد المؤلف في مواضع كثيرة أن يضع موضوعاته في قالبٍ من العبارات المتكلفة والمزوقة بالمترادفات والتشبيه والسجع، وإدخال أكثر ما يمكن من المفردات العربية، وأحياناً كان التكلف اللفظي لعباراته أكثر من عبارات **سلجوقنامه.** ولننظر إلى هذه العبارة: "عندما تصالح محمود سبكتكين مع ملك تركستان، ايلك خان، وجاء محمود إلى ضفة نهر جيحون واجتمعا معاً وعقدا العهود والمواثيق، وعُينت حدود ممالك كلٍ منهما كان ايلك خان خائفاً من السلاجقة، فقبلها كان محمود بحكم المصاهرة والصداقة التي بينهما قد عقد سلسلة الوداد والاتحاد. فأرسل شخصاً من الذين كانوا في ممالك

هذه الرقعة ومسالك هذه البقعة من الأقوام الترك الذين لهم قوة كبيرة وشوكة عظيمة. والذين جاؤوا من تركستان منذ سنوات وأقاموا في نور بخارا ونواحي سمرقند... إلى أن اقتضت دغدغة الخاطر ووسوسة الضمير أنكم إذا ما عزمتم على الحركة والتوجه نحو الهند، اظهروا الفتنة والفساد تبعاً لتغير ولتبدل الزمان وتقلب وصروف الأيام الغادرة" (٨).

وقد ورد هذا الموضوع في **جامع التواريخ** هكذا: "وعندما تصالح محمود سبكتكين مع ايلك خان ملك تركستان وسمرقند، وجاء محمود إلى ضفة نهر جيحون، واجتمعا مع بعضهما، وعقدا العهود والمواثيق، وعُينت حدود كل منهما... كان ايلك خان خائفاً منهم، فأرسل شخصاً إلى السلطان محمود ؛ انه بحكم المصاهرة والوداد الذي كان معقوداً ومبرماً بين الجانبين فإن في ممالك هذه الرقعة ومسالك هذه البقعة قوم ذوو قوةٍ شديدةٍ وشوكةٍ عظيمةٍ من الأتراك، والذين جاؤوا من تركستان منذ سنوات، وأقاموا في نور بخارا ونواحي سُغد سمرقند، وقد خضعت جملة هذه المسارح والمراعي لهم، ووفرت للجيش الأُهبة والآلات والأدوات والعدة، وصارت خيلهم بكامل قوتها وازداد عددها. إلى أن اقتضت دغدغة الخاطر ووسوسة الضمير أنكم إذا ما عزمتم على الحركة والتوجه نحو الهند حصلت الفتنة والفساد منهم تبعاً لتغير وتبدل الزمان وتقلب الأيام الغادرة، بحيث يتعذر تلافي وتدارك ذلك" (٩).

هاتين العبارتين عينُ بعضهما البعض مع اختلاف قليل في القيود وروابط الجملة وبعض الكلمات. ومن مقارنة فقرات **تاريخ السلاجقة** و**سلجوقنامه يبدو** واضحاً أن كاتب **تاريخ سلاجقه** كان أكثر نضجاً في عمله وأكثر مهارة في إنشاء النثر الفارسي من مؤلف **سلجوقنامه.** ولننظر إلى العبارتين التاليتين: "ظاهراً عندما لم يبق على وجه الأرض شيء، قاموا بنقب الأقباء والسراديب، وخربوا القصور وعذبوا الأسرى وحشوا أفواههم بالتراب والملح ليدفنوهم، وإلا كانوا يموتون من الإجهاد والمشقة. وهرب من تبقى من ضرب السيف إلى الشقوق والحفر والآبار والقنوات حتى صلاة العشاء عندما خرج الغُزان من المدينة" (١٠). وقد جاء في **سلجوقنامه**: "وعندما لم يبق شيء ظاهراً ثقبوا

أبواب الأقبية والجدران، وخربوا الأبنية والقصور، وعذبوا الأسرى وحشوا أفواههم بالتراب ليدفنونهم، وإلا كانوا يموتون من شدة إيذاء الجروح المؤلمة، ونهاراً كانوا يهربون إلى الآبار والقنوات المهجورة، وعند صلاة العشاء خرج الغوزان من المدينة" (١١).

قسم من هذا الكتاب يدور حول الاسماعيليين والفاطميين والنزاريين. وقد طُبع هذا القسم بتحقيق السادة دانش پژوه ومدرس زنجانى على نفقة مؤسسة الترجمة ونشر الكتاب. ومن خلال القراءة والتدقيق في الفصول المختلفة لهذا الكتاب، يمكن أن نستنتج أن إنشاء كل أبواب وفصول الكتاب لم تكن على ماءٍ واحدٍ، بل ان كل فصلٍ قد كتبه شخص؛ إلا إذا قلنا إن الكاتب قد اتخذ لنفسه في كتابة كل فصلٍ أسلوباً مختلفاً، وتبدو هذه النظرية في غاية البعد. فالفصل الذي كان حول سيدنا (*) والذي طُبع تكراراً، نثرٌ بسيطٌ يخلو من التزويق، ولكنه في الوقت نفسه ناضج ومنسجم. وقد حُررت مقدمة الكتاب بنثر اسلوب أوائل القرن السادس، مثل هذه العبارة: "في زمان الدولة العباسية، نظروا، فوجدوا الميدان خالياً من الرجال، والخصم غافلٌ، والأُمورُ مهملةٌ، والهممُ قاصرةٌ، والعزائمُ واهيةٌ، وغلبت مسايرةُ الشهوات واللذات، والأمر بالمعروف مقهورٌ، والنهي عن المنكر مغلوبٌ. فبحثوا في كل زاوية عن فرصة، فحرضوا الدعاة العقلاء ذوي اللسان الحلو والرفاق ذوي البيان الفصيح لطيفي الكلام على الدعوة" (١٢).

وكما نرى، فإن أول جملة قصيرة قد وردت، كانت مشتملةً على كامل أجزاء الجملة، في الوقت الذي جاءت فيه بقية المواضيع في حالة قيد وعلى شكل جملة محذوفة الرابطة ومعطوفة على الجملة الأُولى. سياق العبارة يُذكِّر بعبارة نظامى عروضى، وأسلوب الكتابة تقليد لنثر القرن السادس؛ مثلما نقرأ في **چهار مقاله**: "كانت أسباب التمنع وعلل الترفع في غاية التصنع. الخزائن مهيأة والجيش جرَّار، والعبيد مطيعون" (١٣).

مثلما ذكرنا فقد كان الفصل المتعلق بشرح حال سيدنا، نثر بسيط وجمل قصار وعبارات بمنتهى التساوي، كما نرى في هذه العبارة: "وقد جاء إلى

الإسكندرية في رجب سنة اثنتين وسبعين، وفجأة هبت ريح عاصفة وكسرت السفينة، فاضطرب الناس، وكان سيدنا هادئاً وغير مكترث، فسأله أحدهم: كيف تكون آمناً في هذه الحالة؟ فأجابه: لقد أخبرني المستنصر عن هذه الحادثة وقال لن يحصل أي خوف، لذا فأنا لا أُفكر فيها" (١٤). وهذه العبارة أيضاً: "أرسل الحكيم أبو العباس رجلاً يدعى ارَّجانى للمناظرة وقال: الاسماعيليون كُثر في الارض ولكنهم لا يقتلون المسلمين وهناك الكثير ممن يتبعون مذهبكم. ولكنهم لا يفعلون ما تفعلونه. قال سيدنا: الناس مؤمنون بكتاب الله وسنة رسوله، وزعم الخصوم أننا نعرف الله بالعقل والفكر والعارف بالله لا يذهب بنفسه إلى النار. .." (١٥). ولكن تلاحظ أحياناً في بعض فصول الكتاب عبارات ليس لأسلوب تحريرها أي شبه مع مقدمة الكتاب أو الفصل المتعلق بسيدنا. وقد أطنب الكاتب في إيراد المترادفات واستعمال المفردات العربية، فأغلق على نثره؛ مثل هذه العبارة: "اختلى مولانا يوماً وحيداً في التكية وحلَّ عدة مسائل كانت مشكلةً بخلوته. وعندما حلَّ وقت الطعام أرسل الخادم إلى البيت لإحضار الغذاء. فلما خرج من التكية انتهز فدائيٌ متفقهٌ الفرصة، وسأله مَنْ في خدمة مولانا من الأصحاب والأحباب؟ قال الخادم: لا أحد، فريداً ووحيداً، قال الفدائي: أبطء وتأخر في المجيء فلدي مسألتين أو ثلاث قد أشكلت وأغلقت عليَّ" (١٦).

إن تركيبات مثل: (منفرداً ومختلياً)، و(الغذاء والمأكل والطعام)، و(الأصحاب والأحباب)، و(فريد ووحيد)، و(التأخر والإبطاء)، و(مشكلٌ ومغلق) مترادفات لا نجد لها نظيراً في الفصول الأُولى للكتاب.

ومرة أُخرى فان عبارة: "فدائي... قال يقرؤك مولانا السلام ولديه نزاع والتياع واشتياق تام للقائكم ويدعوكم للحضور إلى القلعة" (١٧). إن كلمة (التياع) غريبة في النثر الفارسي، وكلمة (نزاع) ولو أن لها في العربية معنى الاشتياق، لكنها لم يسبق أن استخدمت في الأدب الفارسي بهذا المعنى. وأيضاً فإن من نماذج النثر المتكلف لهذا الكتاب: في (ولادة الحسن بن محمد) يقول: "عندما جلس على عرش المملكة مكان أبيه، استقذر عادات الإلحاد... وكان يزجر ويوبخ ويمنع ويقرِّع قومه وشيعته، ويحثهم على التزام الإيمان والإسلام

وإتباع عادات الشرع" (١٨). ويقول أيضاً: "وكانت أُم جلال الدين حسن امرأة مسلمةً زاهدةً عابدةً صالحةً، وقد عزمت سنة تسع وستمائة على الحج، فارتفعت في طريق حجها رايتها وكان ملوك الأطراف وسلاطين الأكناف. .." وأيضاً "تعاهدوا وتواضعوا مع جلال الدين وكان بينهم التراضي والتصافي لحظة بلحظة يتصاعد ويرتقى". وتحكي جميع مواضع العبارة عن عدم اطلاع الكاتب على اسلوب اللغة الفارسية.

١. استعمال (استقذار) بدلاً من (إلغاء عادات الإلحاد).
٢. وصف (مسلمانه) لامرأة يشير إلى عدم إلمام الكاتب بقواعد اللغة الفارسية.
٣. إيراد الفعل (تصاعد وارتقى) للتراضي والتصافي ليس فصيحاً. وهذه نماذج لانحطاط النثر وعلامة على عدم نضج كاتب هذا الفصل من الكتاب، ويدل على أن كاتب هذا الفصل ليس كاتب الفصول الأُخرى منه، لأنه يبدو بعيداً عن القريحة المباشرة أن يكون من كَتب الفصول الأُولى هو الكاتب نفسه، وفي هذا الفصل يميل إلى هذا الانحطاط.

أما ذلك القسم من **جامع التواريخ** الذي يعد علامة على الأسلوب الحقيقي والتخصصي لمؤلف الكتاب. فهو القسم المتعلق بتاريخ الملوك المغول وأنسابهم؛ لأنه لم يكن يتوفر كتاب جاهز لتحرير هذا المجلد ليكتب المؤلف متكئاً عليه وفي النتيجة فقد بقي مصدر الكتاب محفوظاً نوعاً ما. فكل ما كتبوا كان من إنشائهم هم أنفسهم وكان إتباعاً للأسلوب الرائج في عصره. ولكن نثر هذا الفصل من الكتاب هو أيضاً من البداية إلى النهاية ليس على المنوال نفسه؛ فأحياناً نرى فقرات في غاية البساطة والسلاسة ولا تتضمن أية إشارة إلى الصناعات اللفظية؛ مثل هذه العبارة: "وأيضاً في هذه السنة فقد توجه ابن الملك يساور من قندهار وگرمسير نحو سيستان وكتب كتاباً إلى الملك ناصر الدين: إننا، ولعهودٍ، كنا وبحكم أمر المغفور له السلطان أُلجايتو سلطان، والأمر الملكي لابن ملك العالم أبو سعيد بهادر في ديارنا هذه ومازندران وزابل وكابل إلى نهر السند التي وهباها لنا". هذه هي العبارة، وكما نرى قد حُررت بنثر بسيط وفصيح. باستثناء (الأمر الملكي = يرليغ) التي هي اصطلاح إداري ولا

حيلة من استعماله، والذي ورد في كتاب المصنف. ومرة أُخرى لننتبه إلى هذه العبارة: "ذهب حاجٌ إلى البصـــرة، ومن هناك توجه إلى مكة مع مالٍ وفيرٍ. فتعرض له الأعراب وسلبوه قرابة مئة تومان من ماله وأخذوه إلى مصـر أمام الملك الناصر فأخلى سبيل الحاج وجماعة آخرين من ذوي السمعة الحسنة".

ولكن في هذا القسم نلاحظ أيضاً وبوضوح قلةً وكثرةً في آثار التغيير في النثر، والخروج عن موازين الفصاحة، والميل نحو عدم استعمال القيود، وعدم مراعاة النقاط القواعدية. والآن نذكر نماذج من هذه المواضع:

١. حذف الرابطة بدون قرينة: "ومن هذه الناحية فمع انه قد احتاط كثيراً في الأُمور الشـرعية، فقد حصـل اختلاف كثير فيها مما أدى إلى التشـكيك في بعض الأحاديث النبوية أيضاً". "وعناية ذو الجلال في سابقة لطف ما تزال قد اقتضت هكذا أن يكون تأديب المسلمين على يد طائفة موحدة وعارفة بالله وليسـوا مشـركين ولا أعداء للدين". "ومن الممكن أن لا يكون جميع الخلق متفقي الكلمة في جميع القضـايا، وهذا المعنى واضـح وصـريح لدى الجميع، عندما ينقل المؤرخ عن أقوام مختلفة". "ومع انه لم يكن يملك استعداداً لهذا العمل الكبير ولم يستوف قوة العقل والدين. ..".

٢. حذف الفعل بدون قرينة: "وقد جعل العالم نقياً والقلوب على رأي واحد وطهر بلا خوف بيضة وحياض الممالك من سيطرة الغالبين الجائرين وظلم المعتدين". "وقد بقيت جملة قصـص وأخبار وأحوال العالم متروكة وحرم عموم الخلق من فوائدها". إيراد ياء الاستمرارية خطأ وذكر الفعل الماضي بدلاً من المضـارع الإخباري: "لقد اخرجوا المسـتترين من سـتر العصـمة. وفي هذه الحالـة إذا احتـل المغول جملـة من الأطراف، فـإن جمعَ جيش الأطراف سـهل وأنـا أُفرقهم بجيش محمول. وإذا وقع الخلاف المتوقع، فالأولى أن يُقتل الرجل الشهم في ميدان المعركة وباسم العقيدة" (١٩).

إن إيراد القيد في آخر الجملة هو خلاف اسـلوب القدماء الذين كان أكثرهم يأتي به قبل المسـند: "وبقي ذكر الملوك المشـهورين والكياسـرة الموفقين... على أوراق الزمان أبداً مخلداً". إن تكرار كلمة (على) في العبارة

السابقة هي حشو أيضاً. ولكن ذلك القسم من الكتاب الذي حُرر بنثر مصنوع، وزُين بأنواع الصناعات اللفظية من سجع وجناس، وتشبيه، وتضاد، وموازنة، وترصيع، مثل: "أما حال عاشقي الجمال الجلالي الطالبين لسلوك الطريق والراكضين في صحراء التعب"، و"عندما شاهد إبراهيم - عليه السلام - تسليم إسماعيل، ولشدة إخلاصه وجديته البالغة بادر إلى ربط يديه ورجليه بلطف ووضع جانبه على الأرض"، و"وقد عُرفت لديهم أحوال القرون الآتية من أحوال القرون الماضية"، و"وقد تجنبوا جادة الشرع القويم الذي هو الصراط المستقيم على قدر ما ارتكبوا، فاستوجب عليهم التأديب واستحقوا التعذيب ليستيقظوا من نوم الغفلة وأن يحذروا من سُكر النخوة".

ومن الكُتاب السالفين الذين نرى تأثيرهم مشهوداً أكثر من غيرهم في نثر الكتاب نظامى عروضى وعطاء ملك جوينى؛ ففي هذه العبارة مثلاً: "ودليل صدق هذا المعنى هو كم كانت المملكة واسعة، وشوكة نافذة، وبنعمة جزيلة، وأموال وفيرة وخزائن كثيرة جداً، وتتوافر على جميع أسباب السعادة والنعم في هذه الدنيا التي تحصَّل عليها السلطان محمود الغزنوي. واليوم لم يبق اسمه الطيب وذكره الجميل إلا بواسطة حديث عنصرى وفردوسى وكلام عتبى:

ما زال في العالم باقياً مقيداً بقيد القافية آثار حسن سيرة محمود الغزنوي

وبلا شك فإنه قد تأثر بعبارة نظامى عروضى التالية: "كثير من العظماء الذين أكلوا نعمة الملوك وقدموا العطايا العظيمة، واليوم ليس من آثارهم شيء، ولا من خدمهم وحشمهم أحد، وكثيراً من القصور المنقوشة والجنائن الجذابة التي بنوها وزينوها قد سُويت اليوم بالأرض، وأصبحت شبيهة بالقفار والأودية:

كثيراً من القصور التي بناها محمود والتي أوصل علوها إلى القمر

ألم ترَ أن لبنة من بينها فقط ظلت واقفة ولكن مديح عنصرى قد بقي صامداً

إن الرسائل هي أيضاً من جملة المؤلفات المنثورة للخواجه رشيد الدين، والتي تعد ذات اسلوب أصيل وخاص به، ولو أنها في أُصولها تعدُّ امتداداً لفن كتابة الرسائل في القرن السادس، لكن مميزاتها العديدة تعطيها صفة خاصة.

هذه الرسائل جمعها رجل يدعى محمد ابرقويى والذي يُعرِّف نفسه على أنه كاتب الخواجه وكتب مقدمة لها. أكثر الرسائل كانت مكتوبة بعنوان أبناء الخواجه الذين كانوا حكام الولايات، وبعضها مُصدَّرة باسم علماء وعظماء عصره. كان نثر الرسائل على خلاف نثر **جامع التواريخ**، فقد كان متصنعاً ومتكلفاً. وقبل هذا فإن الكلمات والتراكيب العربية التي هي من خصائص رسائل هذا العصر، يلاحظ فيها استخدام الصناعات اللفظية من التضمين، والسجع، والترصيع الكثير، ومن الاستعارة والتشبيه القليل؛ فيما عدا الرسائل التي يكون موضوعها في المسائل الدينية والكلامية، ففيها يتحرر النثر من قيد التكلف ويميل إلى النثر المرسل؛ مثل هذه العبارة: "النوع الأول المتعلق بالجوارح، مثل السرقة وشرب الخمر وعقوق الوالدين والزنا وبقية الذنوب المتعلقة بالجسم كله والتي تدعى ظاهر الإثم" (٢٠). نلاحظ في هذه العبارة أن ظاهر الإثم وحده مأخوذ من الآية ١٢٠ من سورة الأنعام قد جاء على شكل اقتباس. ولكن أكثر المراسلات وخصوصاً مقدمات صدر الرسائل كانت تُحرر بنثر متصنع ومزيَّن بالاستعارات والتشبيهات المختلفة والمشحونة بالكلمات العربية؛ مثل هذه العبارة: "عطارد وزير ملك ملوك الفلك، من اللئاليء المتلألئة الأرقام والأقلام والمخدوم الحقيقي الملتقط فرائد فوائد. .." (٢١). وكان الاقتباس من القرآن المجيد، وإيراد الأمثال، والأشعار الفارسية والعربية هو أيضاً واحدا من الصفات الأُخرى لهذه الرسائل، كما كان معمولاً به في ذلك العصر. وندرج ذيلاً نموذجاً من الاقتباس من الآيات القرآنية، وإيراد الحديث، والصناعات البديعية لهذه الرسائل.

اقتباس الآيات القرآنية:

هذه الصناعة قد جاءت في ٣٨ رسالة من ٥٣ رسالة، واقتباس الآيات له درجات مختلفة؛ فأحياناً تمزج الآية مع العبارة بحيث تعد بحكم ركن للجملة أو جزء متمم لها: "والبعض يكون بحال تلفحهم بها الشدائد، كما في كلما نضجت جلودهم بدَّلناهم جلوداً غيره" (٢٢).

"ابتداءً فإن الكافر يضل نفسه في صحراء الضلالة بسبب غلبة جهالة نفسه والمنافق مع علمه، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء [٢٣]، ليس كافراً وليس مسلماً، ومن مات في الدرجة الرفيعة والمنزلة الراقية من خلان الوفاء وإخوان الصفاء، ومن نجا من مهاوي كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران" [٢٤]. "وفجأة تهب نسائم العناية من مهب لطف ولا تيأسوا من روح الله، ولا تقنطوا من رحمة الله" [٢٥]. وأحياناً بشكل استشهاد وتأييد للقول السابق: "والجنة بوسعه وعرض عدة سماوات وارضين، كما قال عزَّ وجل: "وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" [٢٦]. "ويطلق لسانه بالذكر والتسبيح والتقديس والتهليل لخالق الأرواح والأجسام، والأفلاك والأجرام، استناداً إلى ألا بذكر الله تطمئن القلوب" [٢٧].

تضمين الحديث بصورة استشهاد:

"أن يصرف كل همته وتمام سعيه بموجب كُلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، لرفاه الرعايا ودائع رب البرايا جلت قدرته" [٢٨].

ويلاحظ أيضاً أن الموازنة والترصيع من الصناعات التي استعملت أكثر من غيرها من المحسنات اللفظية في هذه الرسائل: "ديار الصلاح مهجورة، وطريق الفلاح بعيدة؛ فطنتهم جامدة وفطرتهم خامدة؛ شمس ديانتهم منكسفة، وقمر أمانتهم منخسف؛ وشمس إقبالهم زائلة في المغرب، ونجم آمالهم في عقدة الذنب والوبال".

وأنواع الجناس وخصوصاً جناس الاشتقاق في الرسائل كثيرة وتشير إلى أن المؤلف كان يولي اهتماماً خاصاً للإغراق في هذه الصناعة: "لا تتبع السائلين إلى سؤال نيل حاجتهم؛ جماعة المتمردين الذين تحصنوا في الجبال العصية والقلاع الحصينة، والمساكين الساكنين في مساكن الذل والهوان، قد خيمت جنود الحزن في ربوع حبورهم، وحلَّت عساكر الندم في معسكرهم".

الطباق والتضاد:

"لا تكلف سفلة الناس بالأعمال الخطيرة. ولا تعطي الأعمال الكبيرة إلى العمال الصغار. واشدد حزام الحرص على المال والروح على الشاب والعجوز والوضيع والشريف والقوي والضعيف".

إن الإطناب من السمات البارزة لرسائل القرن السادس والسابع، ولكن تم الإفراط في هذه الصناعة في **مكاتبات رشيدى** ؛ وخصوصاً في صدر الرسائل التي ترد في الركن الأصلي للجملة بحدود جمل وقيود وصفية والتي تؤدي إلى انصراف ذهن القارئ عن أصل المعنى: "الكُتاب أرباب الفطنة وسدنة المملكة، ومنقار قلمهم بلبل بستان البلاغة وعندليب أغصان البراعة، لأنهم يزينون عذرية الصباح بضفيرة الليل الملونة بلون العنبر ويلف وجه الدولة وراية النصرة بخال الخلود و طغراء المقصود، ويجعلون بيوت الملوك كنز خزائن قارون وطميرة دفائن فريدون:

فتُعنبرُ في ساعةِ الجيبُ نسرينٌ والثوبُ كافورُ

احذر وانصرف إلى حفظ جانب وصيانة ناموس هذه المجموعة من أرباب المقدرة" (٢٩). حيث أن خلاصة هذه العبارة الطويلة هذه الكلمات الست فقط: "ارعَ الكُتاب قدر الاستطاعة".

وبهذه العبارة: "العلماء الذين هم أساس الدين والملة ونظام الحلال والحرام، والنص المجيد: يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً قد نزلت في حقهم، و هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أصبح ظاهراً من وفرة علمهم، والحديث النبوي العلماء ورثة الأنبياء قد جاء في حق هذه الجماعة، وجوهر علماء أُمتي كأنبياء بني إسرائيل قد ورد في التعريف بهممهم:

طلب العلم والقناعة شأني لست أبغي سواهما في الزمان

فإذا ما قنِعتُ صرتُ غنياً وإذا ما علمت نلت الأماني

***

العامة عُميٌ، والمبصر في العالم زمرة أرباب الفضل والعلم

ورثة الأنبياء المرسلين حملة العلم وأهل البصيرة

واحذر فيما يتعلق بهذه الزمرة أن تعاملهم معاملة العبودية" (٣٠). وحاصل هذه العبارة الطويلة هذه الكلمات الثلاث: "اخدم العلماء".

هذه الفقرات قليل من كثير وحفنة من قنطار ونموذج مختصر من مفصل الصناعات اللفظية والمعنوية والتي تشاهد في جميع مواضع **مكاتبات رشيدى**.

الهوامش:

(١) جامع التواريخ، تصحيح احمد آتش، ص٧.
(٢) تاريخ بيهقى، تصحيح فياض، ص٥٧٥.
(٣) المصدر نفسه، ٤٥٧.
(٤) ترجمهٔ تاريخ يمينى. (قصة معركة ايلك خان).
(٥) جامع التواريخ، ص١٥٣.
(٦) المصدر نفسه، ص١٥٨.
(٧) سبك شناسى، ج٣، ص١٧٣.
(٨) نيشابورى، ظهير الدين، سلجوقنامه، تهران ١٣٣٢، ص١٠-١١.
(٩) جامع التواريخ (تاريخ آل سلجوق)، ص٦.
(١٠) جامع التواريخ، ص٩٧.
(١١) سلجوقنامه، ص٥٠.
(*) سيدنا: أو شيخ الجبل، هو لقب حسن الصباح زعيم الإسماعيلية في إيران. ولد سنة ٤٣٠هـ، وتوفي سنة ٥١٨هـ. (المترجم)
(١٢) جامع التواريخ مقدمه، ٧-٨.
(١٣) چهار مقاله، (المقالة الثانية، الحكاية الثانية).
(١٤) جامع التواريخ، ص١٠٢.
(١٥) چهار مقاله، ص١٢٧.
(١٦) جامع التواريخ، ص١٧١.
(١٧) المصدر نفسه، ص١٧٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(١٩) جامع التواريخ، (وقائع فتح بغداد).
(٢٠) مكاتبات رشيدى، محمد شفيع، ص٦.
(٢١) المصدر نفسه، ص٧.
(٢٢) مكاتبات رشيدى، ص ٣٧. الصواب: "بدلناهم جلوداً غيرها". (المترجم)
(٢٣) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ص١١١.
(٢٥) المصدر نفسه، ص١١.
(٢٦) المصدر نفسه، ص٣٧، ص٨٩، وجنة عرضها السموات والارض.
(٢٧) المصدر نفسه، ص٨١.
(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٠.
(٢٩) المصدر نفسه، ص٨٥.
(٣٠) المصدر نفسه، ص٨٦.
** زندگى نامه وخدمات علمى وفرهنگى دكتر سيد جعفر شهيدى، انجمن آثار ومفاخر فرهنگى، چاپ شريف، چاپ دوم ١٣٨٨هـ ش، ص ١١٩- ١٣٩.

The style of Persian books for Khawaja Rasheed Addin Fadhel Allah

Edited by: Dr. Sayed J.Shahidi

Translated by: Assis. Prof. PhD. Emad Al-Abbasi
Centre of revival of Arabian science heritage
University Baghdad

(Abstract)

This research (**The style of Persian books for Khawaja Rasheed Addin Fadhel Allah)**is marked to a minister and historian (1247-1318AD) for a number of his books and theses .Dr. Jafaar had started his research by collecting dates of a detailed book of general history in the world including a history of previous kings , prophets ,the history of Islam until the fall of Baghdad ,the history of Jews ,the Christian history, India ,China ,and the history of the Mongols trying to discuss how to adopt author on sources and the accuracy of transporting some reference whether or not to refer to them set out examples in points or by historian phrases shows concords in words among them without any changes especially what he had transmitted from the history of Al-Tabry and how he had made it a source of him making another copy of it from the history by Yemini and also refers to the simplest changes that were included by Khawaja if necessary to move from these sources and lists examples to ungrammatical and meaningless words and structures or to use special terms from chapter without other that is the real style of the author of book , it is a part of Moguls kings because there is not available book to be as a source which had been kept and what had edited was by author himself and its style was following to the prevailing style of his time notice the prose of this book has characterized with simplicity .

The research has signed to a subject with quoted Ayat of Quran including Hdeeth ,to confirm ,counterpoint and contrast.